



الكرسي الرسولي

قارعلنا لىلا ؤىلوسرلنا قرأىزلنا

عظة قداسة البابا فرنسيس

فى القداس الإلهي

فى كاتدرائية القديس يوسف للكلدان فى بغداد

السبت 6 مارس / آذار 2021

[Multimedia]

تُكَلِّمُنَا كَلِمَةُ اللَّهِ الْيَوْمَ عَلَى الْحِكْمَةِ وَالشَّهَادَةِ وَالْوَعْدِ.

ظَهَرَتْ الْحِكْمَةُ وَنَمَتْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مِنْذُ أَقْدَمِ الْعُصُورِ، وَابْتَحَثَ عَنْهَا قَتَنَ الْإِنْسَانَ دَائِمًا. وَمَعَ ذَلِكَ، فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ، مَنْ كَثُرَتْ إِمكَانَاتُهُ هُوَ الَّذِي زَادَ كَسْبَهُ لِلْمَعَارِفِ، وَزَادَتْ فُرْصُ الْحَيَاةِ أَمَامَهُ، أَمَا الَّذِي قَلَّتْ إِمكَانَاتُهُ فَقَدْ تَرَكَ جَانِبًا وَصَارَ مَهْمَشًا. وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُمْكِنُ الْقَبُولُ بِهِ، مَعَ أَنَّ عَدَمَ الْمُسَاوَاةِ هَذِهِ قَدْ اتَّسَعَتْ الْيَوْمَ وَزَادَتْ. لَكِنْ يُفَاجِئُنَا سِفْرُ الْحِكْمَةِ وَبِعَكْسِ وَجْهَةِ النَّظَرِ، قِيْقُولُ: "إِنَّ الصَّغِيرَ أَهْلُ الرَّحْمَةِ. أَمَا أَرَبَابُ الْقُوَّةِ فِيْقُوَّةٍ يُفَحْصُونَ" (حك 6، 6). فِي نَظَرِ الْعَالَمِ، مَنْ لَدَيْهِ الْقَلِيلُ يُنْبِذُ وَيَهْمَشُ، وَمَنْ لَدَيْهِ الْكَثِيرُ فَهُوَ الْمُمَيِّزُ. وَأَمَا فِي نَظَرِ اللَّهِ فَصَاحِبُ الْقُوَّةِ يَخْضَعُ لِامْتِحَانِ صَارِمٍ، وَالْآخِرُونَ هُمْ الْمُمَيِّزُونَ لَدَى اللَّهِ.

يُكْمِلُ يَسُوعُ، الْحِكْمَةَ الْمَشْخَصَةَ، هَذَا الْإِنْقِلَابَ فِي الْإِنْجِيلِ، وَلَيْسَ فِي آيَةٍ لِحَظَةٍ، وَلَكِنْ مِنْذُ الْبِدَايَةِ، فِي أَوَّلِ خِطَابِ لَهُ، فِي التَّطْلُوبَاتِ. الْإِنْقِلَابُ كَامِلٌ: قَالَ إِنَّ الْفُقَرَاءَ وَالْبَاكِينَ وَالْمُضْطَّهَدِينَ هُمْ الْمَطْلُوبُونَ. كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ؟ فِي نَظَرِ الْعَالَمِ، الْأَغْنِيَاءُ وَالْأَقْوِيَاءُ وَأَصْحَابُ الشُّهْرَةِ هُمْ الْمَطْلُوبُونَ! لَهُ قِيْمَةٌ مِنْ يَمْلِكُ، وَمَنْ يَقْدِرُ، وَمَنْ كَانَ مُعْتَبَرًا! لَيْسَ كَذَلِكَ فِي نَظَرِ اللَّهِ. فِي نَظَرِ اللَّهِ لَيْسَ الْكَبِيرُ مِنْ يَمْلِكُ، بَلْ الْفَقِيرُ فِي الرُّوحِ. لَيْسَ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يَفْرَضَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى غَيْرِهِ، بَلْ الْوَدِيعُ مَعَ الْجَمِيعِ، لَيْسَ مَنْ تَهْنِفُ لَهُ الْجُمُوعُ، بَلْ مَنْ يَرْحَمُ أَخَاهُ. هُنَا، يُمْكِنُ أَنْ يَرَاوَدَنَا شَكٌّ وَسَوْأَلٌ: إِنْ كُنْتُ أَعِيشُ كَمَا يَطْلُبُ يَسُوعُ، مَاذَا أَكْسَبُ مِنْ ذَلِكَ؟ أَلَا أَخَاطِرُ بَأَنَّ أَدْعَ الْآخِرِينَ يَدُوسُونِي تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ؟ عَرَضُ يَسُوعِ هَلْ هُوَ مُنَاسِبٌ؟ أَمْ خَاسِرٌ؟ عَرَضُ يَسُوعِ لَيْسَ خَاسِرًا، لَكِنَّهُ حَكِيمٌ.

عَرَضُ يَسُوعِ حَكِيمٌ، لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ الَّتِي هِيَ قَلْبُ التَّطْلُوبَاتِ، حَتَّى لَوْ بَدَتْ ضَعِيفَةً فِي نَظَرِ الْعَالَمِ، فَإِنَّهَا فِي الْوَاقِعِ تَنْتَصِرُ. بَيْنَ يَسُوعِ عَلَى الصَّلِيبِ أَنَّهُ أَقْوَى مِنَ الْخَطِيئَةِ، وَفِي الْقَبْرِ هَزَمَ الْمَوْتَ. إِنَّهَا الْمَحَبَّةُ نَفْسَهَا الَّتِي جَعَلَتْ الشُّهَدَاءَ يَنْتَصِرُونَ فِي الْمِحْنَةِ، وَكَمْ كَانُوا كَثِيرِينَ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي، أَكْثَرَ مِنْهُمْ فِي الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ! الْمَحَبَّةُ هِيَ قُوَّتُنَا، وَقُوَّةُ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ لَنَا وَأَخَوَاتٍ، عَانُوا هُنَا أَيْضًا مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُسَبِّقَةِ وَالْإِسَاءَاتِ وَسُوءِ الْمُعَامَلَةِ وَالْاضْطِهَادَاتِ، مِنْ أَجْلِ اسْمِ يَسُوعِ. وَبَيْنَمَا تَزُولُ قُوَّةُ الْعَالَمِ وَمَجْدُهُ وَأَبَاطِيلُهُ، الْمَحَبَّةُ تَبْقَى، كَمَا قَالَ لَنَا الرَّسُولُ بُولُسُ: الْمَحَبَّةُ "لَا تَسْقُطُ أَبَدًا" (1 قور 13، 8). الْعَيْشُ يَحْسَبُ التَّطْلُوبَاتِ هُوَ بِالتَّالِيِ أَنْ نَجْعَلَ الزَّمَنِيَّ الْعَايِرَ أَبَدِيًّا. وَأَنْ نُنْزَلَ السَّمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ.

وَلَكِنْ كَيْفَ نَعِيشُ التَّطَوُّبِيَّاتِ؟ لَا يَقْتَضِي مِمَّا الْأَمْرُ أَنْ نَقُومَ بِأَشْيَاءَ غَيْرَ عَادِيَّةٍ، أَوْ بِأَعْمَالٍ تَفُوقُ قُدْرَاتِنَا. مَا يُطَلَّبُ مِنَّا هُوَ شَهَادَةُ حَيَاتِنَا الْيَوْمِيَّةِ. طُوبَى لِمَنْ يَعِيشُ بِوَدَاعَةٍ، وَلِمَنْ يُمَارِسُ الرَّحْمَةَ أَيْنَمَا كَانَ، وَلِمَنْ يَحْتَفِظُ بِقَلْبِي نَقِيٍّ حَيْثَمَا كَانَ. حَتَّى نَكُونَ مِنَ الْمُطَوِّبِينَ لَيْسَ مِنَ الصَّرُورِيِّ أَنْ نَكُونَ أَبْطَالًا بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ، بَلْ أَنْ نَكُونَ شُهُودًا كُلِّ يَوْمٍ. الشَّهَادَةُ هِيَ الطَّرِيقَةُ لِتَجَسُّدِ حِكْمَةِ يَسُوعَ. هَكَذَا يُغَيِّرُ الْعَالَمَ: لَيْسَ بِالسُّلْطَانِ أَوْ بِالقُوَّةِ، بَلْ بِالتَّطَوُّبِيَّاتِ. لِأَنَّ هَذَا مَا فَعَلَهُ يَسُوعُ: عَاشَ حَتَّى النِّهَايَةِ مَا قَالَهُ مُنْذُ الْبِدَايَةِ. كُلُّ شَيْءٍ يَكْمُنُ فِي الشَّهَادَةِ لِمَحَبَّةِ يَسُوعَ، تِلْكَ الْمَحَبَّةُ نَفْسِهَا الَّتِي وَصَفَهَا الْقَدِيسُ بُولْسُ بِصُورَةٍ بَلِغَةٍ، فِي الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ الْيَوْمِ. لِنَرِ كَيْفَ وَصَفَهَا.

قَالَ بُولْسُ أَوْلًا "الْمَحَبَّةُ تَصِيرُ" (آيَةُ 4). لَمْ تَتَوَقَّعْ هَذِهِ الصِّعَّةَ. تَبَدُّو الْمَحَبَّةَ مُرَادِفَةً لِلصَّلَاحِ وَالكَرَمِ وَأَعْمَالِ الْخَيْرِ. وَمَعَ ذَلِكَ، قَالَ بُولْسُ إِنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ صَائِرَةٌ. وَرَدَّتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ، فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى صَبْرِ اللَّهِ. ظَلَّ الْإِنْسَانُ غَيْرَ التَّارِيخِ يَخُونُ الْعَهْدَ مَعَ اللَّهِ، وَيَقَعُ فِي خَطَايَاهِ الْمُعْتَادَةِ، وَاللَّهُ، لَمْ يَتَعَبْ وَلَمْ يَتْرِكْ الشَّعْبَ، بَلْ بَقِيَ أَمِينًا كُلِّ مَرَّةٍ، وَعَفَرَ، وَبَدَأَ مِنْ جَدِيدٍ. الصَّبْرُ وَالْبَدْءُ مِنْ جَدِيدٍ فِي كُلِّ مَرَّةٍ هُوَ الصِّفَةُ الْأُولَى لِلْمَحَبَّةِ، لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ لَا تَغْضَبُ، بَلْ تَنْتَلِقُ دَائِمًا مِنْ جَدِيدٍ. وَلَا تَحْزَنُ بَلْ تَفْرَحُ. وَلَا تَيْأَسُ، بَلْ تَبْقَى خَلَّاقَةً. وَأَمَامَ الشَّرِّ لَا تَسْتَسَلِمُ، وَلَا تَرْضَخُ. مَنْ يُجِبُّ لَا يَنْغَلِقُ عَلَى نَفْسِهِ عِنْدَمَا تَسُوءُ الْأُمُورُ، بَلْ يُجِبُّ عَلَى الشَّرِّ بِالْخَيْرِ، وَيَتَذَكَّرُ حِكْمَةَ الصَّلِيبِ الْمُتَّصِرَةِ. إِنَّ الشَّاهِدَ لِلَّهِ يَفْعَلُ هَذَا: لَيْسَ انْهَزَامِيًّا، وَلَا يَخْضَعُ لِلْحَتْمِيَّةِ، وَلَا يَعِيشُ تَحْتَ رَحْمَةِ الطُّرُوفِ وَالْغَرِيزَةِ وَاللَّحْظَةِ، بَلْ يَرْجُو دَائِمًا، لِأَنَّهُ مُؤَسَّسٌ عَلَى الْمَحَبَّةِ الَّتِي "تَعْذِرُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَصَدِّقُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَرْجُو كُلَّ شَيْءٍ وَتَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ" (آيَةُ 7).

يُمْكِنُ أَنْ نَسْأَلَ أَنْفُسَنَا: وَأَنَا، كَيْفَ أَتَصَرَّفُ أَمَامَ الْمَوَاقِفِ الصَّعْبَةِ؟ أَمَامَ الشَّدَائِدِ تَرَاوَدْنَا دَائِمًا تَجَرَّبَتَانِ. التَّجَرِبَةُ الْأُولَى هِيَ الْهَرُوبُ: نَهْرَبُ، وَنَتْرِكُ كُلَّ شَيْءٍ، وَلَا نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ شَيْئًا بَعْدَ الْآنِ. وَالتَّجَرِبَةُ الثَّانِيَّةُ، هِيَ اللُّجُوءُ إِلَى الْعَصَبِ وَالقُوَّةِ. هَذَا مَا حَدَّثَ لِلتَّلَامِيذِ فِي الْجُسْمَانِيَّةِ: عِنْدَ الْارْتِبَاكِ، هَرَبَ الْكَثِيرُونَ، وَأَخَذَ بَطْرُسُ السِّيفَ. لَكِنْ لَا الْهَرَبُ وَلَا السِّيفُ أَفَادَ شَيْئًا. أَمَّا يَسُوعُ فَقَدْ غَيَّرَ التَّارِيخَ. كَيْفَ ذَلِكَ؟ بِقُوَّةِ الْمَحَبَّةِ الْمُتَوَاضِعَةِ، وَبِشَهَادَتِهِ الصَّائِرَةِ. إِلَى هَذَا نَحْنُ مَدْعُوعُونَ. هَكَذَا يَتِمُّ اللَّهُ وَعُودَهُ.

الْوَعْدُ. إِنَّ حِكْمَةَ يَسُوعَ الَّتِي تَجَسَّدَتْ فِي التَّطَوُّبِيَّاتِ تَطَلَّبُ الشَّهَادَةَ، وَتَعِدُّ بِالْمُكَافَأَةِ، الَّتِي تَتَّصِفُهَا الْوَعْدُ الْإِلَهِيَّةُ. نَرَى فِي الْوَاقِعِ أَنَّ كُلَّ تَطَوُّبِيَّةٍ يَتَّبِعُهَا وَعْدٌ: فَمَنْ عَاشَ بِحَسَبِهَا كَانَ لَهُ مَلَكَوَتُ السَّمَاوَاتِ، أَوْ سِعْزَى، أَوْ يَشُوعَ، أَوْ سِيرَى اللَّهِ... (رَأ. مَتَّى 5، 3 - 12). وَوَعْدُ اللَّهِ تَضْمَنُ قَرَحًا لَا مِثْلَ لَهُ، وَلَا تُحَيِّبُ الْأَمَالَ. لَكِنْ كَيْفَ تَتِمُّ؟ مِنْ خِلَالِ ضَعْفِنَا. طُوبَى لِلَّذِينَ يَسِيرُونَ حَتَّى النِّهَايَةِ فِي طَرِيقِ قُورِهِمِ الدَّاخِلِيِّ. هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ، وَلَا يُوجَدُ طَرِيقٌ آخَرَ غَيْرِهِ. لِنَنْظُرْ إِلَى أَبِيْنَا إِبْرَاهِيمَ. وَعَدَّهُ اللَّهُ يَنْسُلُ كَبِيرًا، لَكِنَّهُ هُوَ وَسَارَةُ كَانَا مُتَقَدِّمِينَ فِي السِّنِّ وَدُونَ أَبْنَاءٍ. وَفِي شَيْخُوخَتَيْهِمَا تَحْدِيدًا، وَفِي صَبْرِهِمَا وَتَعْتِيهِمَا بِاللَّهِ، صَنَعَ لَهُمَا أُمُورًا عَظِيمَةً، وَأَعْطَاهُمَا ابْنًا. وَلِنَنْظُرْ إِلَى مُوسَى: وَعَدَّهُ اللَّهُ أَنَّهُ سَيَحْرُرُ الشَّعْبَ مِنَ الْعِبُودِيَّةِ، وَلِهَذَا طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُكَلِّمَ فِرْعَوْنَ. فَلَفَّتْ مُوسَى نَظَرَ اللَّهِ إِلَى أَنَّهُ ثَقِيلُ اللِّسَانِ. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَتِمُّ الْوَعْدَ مِنْ خِلَالِ كَلَامِهِ. وَلِنَنْظُرْ إِلَى سَيِّدَتِنَا مَرْيَمَ الْعَذْرَاءِ، بِحَسَبِ الشَّرِيعَةِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ابْنٌ، وَاللَّهُ دَعَاهَا لِتَكُونَ أُمًَّا. وَلِنَنْظُرْ إِلَى بَطْرُسَ: لَقَدْ أَنْكَرَ الرَّبَّ، وَبِيسُوعٍ دَعَاهُ هُوَ لِيُثَبِّتَ إِخْوَتَهُ. إِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي الْأَعْزَاءُ، فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَشْعُرَ بَأَنَّنا لَا نَقْدِرُ أَنْ نَعْمَلَ شَيْئًا، وَلَا فَائِدَةَ لَنَا. لَا نُصَدِّقُ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَصْنَعَ الْعَجَائِبَ بِالتَّحْدِيدِ مِنْ خِلَالِ ضَعْفِنَا.

إِنَّهُ يُجِبُّ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَقَدْ قَالَ لَنَا فِي هَذَا الْمَسَاءِ ثَمَانِي مَرَّاتٍ "طُوبَى"، حَتَّى نَفْهَمَ أَنَّنا طُوبَاوِيُونَ حَقًّا مَعَهُ. بِالطَّبِيعِ، نَحْنُ مُعْرَضُونَ لِلْمَحَنِ، وَنَقَعُ كَثِيرًا، لَكِنْ يُجِبُّ أَلَّا نَتَّسَى: مَعَ يَسُوعَ، نَحْنُ طُوبَاوِيُونَ. مَا يَسْلُبُهُ الْعَالَمُ مِنَّا لَا يُقَارَنُ بِالْحُبِّ الْخَنُونِ وَالصَّابِرِ الَّذِي بِهِ يَتِمُّ الرَّبُّ وَعُودَهُ لَنَا. أُخْتِي الْعَزِيزَةُ، وَأَخِي الْعَزِيزُ، رُبَّمَا تَنْظُرُ إِلَى يَدَيْكَ قَتْرَاهَا فَارِغَةً، وَرُبَّمَا يَتَسَرَّبُ إِلَى قَلْبِكَ عَدَمُ الثِّقَّةِ، وَلَا تَشْعُرُ أَنَّ الْحَيَاةَ تَعُوضُكَ. إِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَلَا تَخَفْ: التَّطَوُّبِيَّاتُ هِيَ لَكَ، لَكِ أَنْتِ الْحَزِينُ وَالْجَائِعُ وَالْعَطْشَانُ لِلْعَدَالَةِ، وَالْمُضْطَهَّدُ. وَعَدَدَكَ الرَّبُّ أَنْ اسْمَكَ مَكْتُوبٌ فِي قَلْبِهِ فِي السَّمَاوَاتِ! وَالْيَوْمَ أَنَا أَشْكُرُهُ مَعَكُمْ وَمِنْ أَجْلِكُمْ، لِأَنَّهُ هُنَا، حَيْثُ نَشَأُ الْحِكْمَةَ فِي الْقَدِيمِ، ظَهَرَ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ شُهُودٌ كَثِيرُونَ، غَالِبًا مَا تَجَاهَلْتُمُ الْأَخْبَارَ وَالْإِعْلَامَ، وَلَكِنَّهُمْ أَعْزَاءُ فِي عَيْنِي اللَّهِ. هَؤُلَاءِ الشُّهُودُ الَّذِينَ يَعِيشُونَ التَّطَوُّبِيَّاتِ، هُمْ أَعْوَانُ اللَّهِ يُسَاعِدُونَهُ فِي تَحْقِيقِ وَعْدِهِ بِالسَّلَامِ.

© جميع الحقوق محفوظة – حاضرة الفاتيكان 2021

Copyright © Dicastero per la Comunicazione - Libreria Editrice Vaticana